التفسير العلمي في إنتاج المفسرين الجزائريين
Scientific interpretation in the production of Algerian interpreters

تاريخ الارسال:17 ماي 2019م تاريخ النشر20 / 06 / 2019.

بلحاج جلول . جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان -

الملخص:
يتعرض هذا المقال إلى ما وجد من التفسير العلمي في تفاسير الجزائريين، وقد لوحظ أن المفسرين المعاصرين خصوصا ألموا بمقادير متفاوتة من ذلك، وكلما تقدم الزمن كلما وجدنا عددا أكثر، وموضوعات أدْخلَ في التفسير العلمي، والملاحظ أيضا أن هؤلاء المفسرين جميعا شديدو التحفظ من هذا النوع، لا يكادون يفرقون ما تسمع به المعاني الأصلية للعبارات الفرآنية، ومقارنة بإنتاج غيرهم من المفسرين المشارقة لا يزال مجال القول واسعا في التعرض لهذا الشكل من التفسير.
الكلمات المفتاحية: تفسير، علمي، شروط، ألفاظ.

Abstract:
This article is exposed to the scientific interpretation found in the interpretations of the Algerians, and it may be noted that contemporary interpreters, in particular, have suffered varying degrees of this. As time progresses, the more we find more, the more scientific subjects are introduced. This type, they hardly distinguish what they hear from the original meanings of the Pharaonic expressions, and compared to the production of other interpreters, the field of discourse is still wide in the exposure to this form of interpretation.
Keywords: interpretation, scientific, terms, words.

01..المقدمة:

احتوى القرآن الكريم على خلاف الموجود من الكتب السابقة على كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الإنسان والكون عموما، وقد جاء ذلك متلعقا مرة ببيان صفة الخلق (ففتقْناهما) [الأنبياء: 30]، وثانية ببيان أطوار خلق الإنسان (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)[المؤمنون: 14]، وثالثة... وقد تناول المفسرون المتأخرون والمعاصرون ذلك في سياق تفسير الآيات المتتالية ضمن مواطنها من السور، واختلفت معالجاتهم لتلك الحقائق بين مقتصر على فك معاني الآيات من جهة اللغة مراعيا معانيَ الألفاظ الأصلية، وبين متوسع قليلا ضمن ما تسمح به معارف عصره، إلى أن انتهى الحال إلى المعاصرين ممن شاهدوا الاكتشافات العلمية، وتوفر لديهم بحكم المطالعة العلمية ما يكشف عن تلك الآيات اللثام لتبدوَ مدلولاتها بصبغتها التجريبية.

02. تحديد المفاهيم:

02. 01- مفهوم التفسير العلمي: أورد فيما يلي محاولتين لتعريف التفسير العلمي، ذكر إحداهما محمد حسين الذهبي " يقصد بالتفسير العلمي التفسير الذي يحكِّم الاصطلاحاتِ العلميةَ في عبارات القرآن، ويحاول استخراج العلوم المختلفة من آياته."[1].

وهو تحديد جيد لكنه لا يذكر الأهداف من ذلك ووجه حاجة المؤلفين إلى ذلك. وهذا ما استدركه بعضهم بالتركيز على أن " المراد بالتفسير العلمي هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن، يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان."[2]. وهو تقيد جيد والتحديد بالعلم التجريبي يدخل سائر العلوم التطبيقية منهاوالنفسية والاجتماعية...وأكتفي بهذين التعريفين فغير ذلك لا يخرج عن التحديدات الواردة فيهما.

02. 02- رأي الباحثين في التفسير العلمي: من الدقة أن يقال أن التفسير العلمي ظهر حديثا مع انتشار العلوم التجريبية والحاجة إلى الملاءمة بينها وبين النصوص القرآنية ونصوص الحديث الشريف الصحيحة، لكون مصدر الخلق والكتاب واحدا. ولا يمكن بناء على ذلك إلا أن يتوافقا وينطبقا على قاعدة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. ولأجل بيان الموضوع نمهد له بتقرير " أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض, وبرّ وبحر وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر ونواميس وسنن.

وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق بل كان معجزا أبهر الإعجاز لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها."[3].

وهذه الحقيقة مقدمة جيدة تدعم القول بوجود إعجاز علمي في القرآن الكريم، وتشجع الباحثين من مفسرين وغيرهم على استكمال البحث العلمي وعدته في ذلك؛ **لـأن"** قصارى الأمر في مسألة الإعجاز العلمي أنَّ الحقيقة الكونية التي خلقها الله، وافقت الحقيقة القرآنية التي تكلم بها الله، وهذا هو الأصل؛ لأنَّ المتكلم عن الحقيقة الكونية المخبر بها هو خالقها، فلا يمكن أن يختلفا البتة."[4]. ومع ذلك يوجد من تحفظ من هذا الشكل من التفسير والمعالجة جمعا بين النصوص الصحيحة والحقائق العلمية السائدة والمتوصل إليها. ونشير هنا أنه لا يوجد من ينكر الإعجاز العلمي بل يشترط في ذلك شروطا من استوفاها جاز له الإقدام وإلا وقع عمله في دائرة الإنحراف في التفسير.

وأهم الشروط المقترحة هي كون النتيجة العلمية حقيقة مقررة، وأن لا يتعسف في حمل معاني الألفاظ على مدولها، ليجعل الحدّ بين الحقيقة والفرضية العلمية، وعن اشتراط الشروط جملة يفيدنا النص التالي: " إن منشأ الانحراف في التفسير العلمي لدى الذين أخذوا يفسرون إشارات القرآن الكونية تفسيرا علميا قائما على النظريات العلمية الحديثة؛ يعود إلى عدم تقيدهم بشروط هذا النوع من التفسير وضوابطه."[5].

03. التفسير العلمي في إنتاج المفسرين الجزائريين:

03 , 01 – التفسير العلمي لخلق السماء:

وأسوق على ما قدمته أمثلة تكون شواهد تقريبية يمكن البناء عليها في غيرها من الآيات وفي مختلف التفاسير أيضا مما لم نطلع عليه غير أنه خضع لظروف عصر المفسر. فعند الثعالبي بمناسبة تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)[البقرة:29]. قد قال:" (فَسَوَّاهُنَّ) قيل جعلهن سواءً، وقيل سوّى سطوحَهن

بالإملاس، وقال الثعالبي: فسواهنّ أي خلقهن.انتهى. وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء وذلك صحيح، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات هذه والتي في سورة المؤمن، وفي النازعات."[6].

وأنت ترى أيها القارئ السعيد أن التفسير قد تم الرجوع فيه إلى معاني الألفاظ من جهة اللغة بتوسع في ذلك كاستفادة (الإملاس) من لفظ التسوية، وقصر (فَسَوَّاهُنَّ) على خلَقنّ كما عزاه إلى الثعالبي أبي منصور وهو غير مفسرنا الجزائري.

وعند أبي راس الناصري المعسكري نجده يحتفظ بالمدلول اللغوي ويعتمد عليه وهو المطلوب، ولا يمنعه ذلك من التوسع فيه بما ثبت عنده من معارف عصره، كما تراه عند تفسيره لقوله تعالى:" (ثُمَّ اسْتَوَى) بعد خلق الأرض أيْ قصد (إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ) الضمير يرجع إلى السماء، لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه أيْ صيَّرها وعدَّلها، كما في آية أخرى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)[فصلت: 12]بدل أو تفسير."[7]. وهذا المقدار يكفي القارئ العادي خصوصا في زمان المفسر لتناسبه، ومعارفه العلمية يومها.

ولما كان من المعارف التقليدية لدى المطلعين كأبي راس وغيره تذكرُ أن الأفلاك سبعة، وأنه في الآية حدد عدد (سَبْعَ)، فقد يفهم منه خلاف المذكور في الآية؛ فوجب دفع ذلك لما فيه من التشغيب على الحقيقة القرآنية. فأورد المفسر المذكور السؤال وردّ عليه بقوله: " فإن قيل: إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلتُ: فيما ذكروه شكوك، وإن صح فليس في الآية نفي الزائد، مع أنه إن ضم إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف. تنبيه: هذه الآية تقتضي أنه خلق السماء قبل الأرض، وقوله (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)[النازعات: 30] ظاهره خلاف ذلك. والجواب أن الأرض خلقت قبل السماء ودحيت بعد ذلك."[8]. ولأكتفِ بهذه المقدار؛ إذ كان الغرض الإشارة إلى طريقة تعاطي المفسر مع الحقائق العلمية في القرآن حسب ما تحتمله معارف زمانه، دون الشروع في تصحيح أو تعقب.

وبمناسبة تفسير قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء: 30]، نجد الشيخ هود بن محكم وهو من قدماء مفسري إلا أني أذكر تفسيره لبيان مدى تطور التفسير خصوصا في هذه الموضوعات العلمية فقد" قوله عز وجل (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) هذا على الخبر في تفسير الحسن (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا): أي كانتا ملتزقتين إحداهما على الأخرى في قول الحسن، فوضع الأرض ورفع السماء.

وقال الكلبي: إن السماء كانت رتقا لا ينزل منها ماء ففتقها الله بالماء، وفتق الأرض بالنبات. وقال بعضهم: كانتا جميعا ففصل الله بينهما بهذا الهواء فجعله بينهن. وقال مجاهد: كن مطبقات ففتقهن، أحسَبه قال: بالمطر. وقال مجاهد: ولم تكن السماءُ والأرض متماستين."[9]. فقد أشار من خلال ما نقله عن التابعين إلى جملة ما كان يقال عند مفسري عصره في معنى "الفَتْق" المذكور، بين معنى الفصْل بعد التماس والالتصاق، وبين معنى شق السماء بالماء وشق الأرض بالنبات بناء على مقولة أن المطر ينزل من السماء.

حتى إذا انتقلتُ إلى الثعالبي وذلك بعد ستّ قرون وجدته يقرر في قوله " أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا والرتق الملتصق بعضه ببعض الذي لا صدع فيه ولا فتح ومنه امرأة رتْقَاءُ واختلف في معنى قوله (كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) فقالت فرقة كانت السماء

ملتصقة بالأرض ففتقها الله بالهواء وقالت فرقة كانت السموات ملتصقة بعضها ببعض والأرض كذلك ففتقهما الله سبعا سبْعا."[10]. فصدَّر بالمعنى الأول الذي هو الفصل بعد الالتصاق، وهذا هو نفس معنى الفتق وفيه كفاية لقارئ التفسير في الأزمنة المشار إليها.

ولما كانت طريقة الثعالبي أنه يعقب على بعض ما ينقل من التفسير، وتكون تعقيباته هي محضَ ما يختارُ من القول، أو جمعا بين ما يستحسنه من الأقوال؛ فقد ذكر قولَ من قال: بأن الرَّتقُ كان بالمطر... واستأنس بآية (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)[الطارق: 12]، وحاول أن يجعل الثانية تفسيرا للأولى فقال: " وقالت فرقة السماء قبل المطر رتقٌ والأرض قبل النبات رتقٌ، ففتقهما الله تعالى بالمطر والنبات كما قال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعديد النعمة والحجة بمحسوس بين ويناسب قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[الأنبياء: 30]، أي من الماء الذي كان عن الفتق فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار بها.

وقالت فرقة: السماء والأرض رتق بالظلمة ففتقهما الله بالضوء والرؤية على هذين القولين رؤية العين."[11]. وهذا القول الأخير هو القول الثالث في تفسير الرتق. وعلى القول الأول الرؤية قلبية إذ لم يشهدها الإنسان بل شهد آثارها، والرؤية على القول الثالث بصرية لأنها متعلقة الضوء المستمر ما دامت السماوات والأرض.

03. 02 – التفسير العلمي لخلق الإنسان:

وقد تناول الشيخ اطفيش رحمه الله الآية في سورة الزمر، والتي تحدد الظلمات التي تغشى الجنينَ قبل خروجه، (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) [الزمر: 6]، وهي فرصة للمفسر المعاصر أن يذكِّر بما قرره القرآن وما يثبته العلم الحديث، ففي اطفيش (هميان الزاد) وهو التفسير الذي بكّر به الشيخ ولا يزال بالعمر الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين، لم تكتمل فيه بعدُ معارفه الدينية فضلا عن الدنيوية يقول مبينا " (يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) [الزمر: 6] الخطاب للناس، وفيه بيان كيفية خلق الناس والأنعام، إظهارا لما فيها من عجائب القدرة؛ لكن خصهم بالخطاب لشرفهم، ولأنهم المقصودون ودليل التخصيص قوله: (أُمَّهَاتِكُمْ). وقوله: (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)[الزمر: 6]) أي إلى الشرك، فإن الأمهات في بني آدم وأما الدواب فيقال لها: أمات. وقيل: يقال في الجميع أمات وأمهات، وأنه لا فائدة في خطاب غير العاقل.

وقد يقال خاطب الجميع ولو كانت الدواب لا يفيد خطابها تغليباً أو خلق الله العقل فيها حين الخطاب ولكن الخطاب في (تُصرَفُونَ) للناس فقط (خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ) خلقكم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً عارية ثم مكسوة لحماً (فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ). قال ابن عباس: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وعليه مجاهد. وقيل: ظلمة صلب الأب وظلمة الرحم وظلمة البطن .وقالت فرقة : ظلمة الصلب وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. ذكر آيات قدرته في خلق السموات والأرض، وتكوير الليل على النهار والنهار على الليل. واتبع ذلك بذكر خلق الإنسان وأعقبه بذكر خلق الحيوان وأعقبه بذكر ما اشترك فيه هؤلاء الحيوانات من الخلق في البطن والظلمات الثلاث."[12].

والذي يهم هنا هو تحديد الظلمات الثلاث، فقد عاد في ذلك إلى قول ابن عباس ومجاهد، وعدد الأقوال ولم يذكر لأهل الطب ولا غيره قولا، وربما كان من أولئك من يندرج تحت

عبارة (وقيل). وتفسير ابن عباس هو الذي ثبت عليه التفسير وتداولت نقله كثيرا وهو نتاج الواقع البسيط والله أعلم.

وأولى من هذا عند المفسر التقليدي بالخصوص هو توظيف الحقيقة (البيولوجية)في تثبيت حقائق الدين، وتقوية قلب العبد على الشعور بالنعمة وشكرها. كما فعل رحمه الله عند قوله: " وفي ذلك تنبيه على توحيد الخالق الذي لا يستحق العبادة غيره وتوهين لأمر الأصنام كما قال: (ذَالِكُمْ) الذي خلق الأشياء (اللهُ)، خبرٌ (رَبُّكُمْ) خبرٌ ثانٍ أو بدل. وذلك كما يذكر زيد بأمر عظيم فتقول تعظيماً لزيد (ذلك زيد) و(الله) بدل أو بيان وربكم خبر والله مبتدأ ثان قائم مقام الضمير تعظيماً وتربية للمهابة أو الإشارة إلى الفعل وبتقدير مضاف أي ذلك الفعل فعل الله ولا يكون الله نعتاً لاسم الإشارة لأنه ليس اسم جنس (لَهُ) لا لغيره (الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) لا خالق ولا معبوداً بحق إلا هو (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) أي كيف يعدل بكم ويمال عن عبادته إلى عبادة غيره وعن طريق الحق بعد هذا البيان."[13]. وما ذكره ضمن ذلك من وجوه الإعراب إنما هو استجابة لمتطلبات المعالجة التقليدية عند المفسرين المتقدمين.

وإذا قارن ما تقدم بالتفسير الجديد للشيخ اطفيش رحمه الله وهو تيسير التفسير يمكننا ملاحظة ما يكون قد تغير من ذلك وعلى أي أساس قد تغير " (يخْلُقكُم) خطاب لبنى آدم المخاطبين بقوله: « خلقكم » وإن جعلناه للأنعام ولبنى آدم ففيه تغليب العقلاء على غيرهم في الضمير، والمخاطبين على ما استحق كلام الغيبة من أن يقال يخلقها (في بُطُون أَمَّهاتِكمْ خلقا من بعْدِ خَلْقٍ) علقة بعد نطفة، ومضغة بعد علقة، وعظما بعد مضغة، ولحما وجلدا وعروقا عظم، وهذه الأطوار في بني آدم والأنعام ونحوها، ومن متعلق، بخلقا أو بيخلق، بمحذوف نعت لخلقاً (في ظلمات) لا يتعلق بيخلق، لأنه قد علق فيه في بطون وحرفا جر لمعنى واحد لا يتعلقان بعامل واحد إلا على التبعية، كما إذا جعلنا في ظلمات بدلا من (في بطون) ويجوز تعليقه بخلقا (ثلاثٍ) ظلمة البطن، والرحم والمشيمة، وقيل: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم، في هذا المشيمة ، ولعل إلغاءها لأنها لا يلزم أن تكون ، وعلى كل حال ألغى صرد المرأة، مع أن ماءها منه، كما أن ماء الرجل من ظهره، ولعل إلغاءه لقلته .

(ذَلكم) الفاعل لما ذكر(الله) المستحق لا ألوهية لفظا ومعنى، ولا يستحق الألوهية لفظا ولا معنى غيره، لأنه لا يفعل فعله، وهو خبر أو بدل أو بيان أو نعت على التأويل بالمعبود (ربّكم) خبر ثان، أو خبر أو بدل أو نعت بمعنى المربى لكم في تلك الأطوار، وبعدها (لَه المُلْك) خبر ثان أو ثالث أو خبر (لا إله إلا هُو) خبر آخر، أو خبر والأولى أنه مستأنف (فأنَّى) كيف (تُصْرفُون) عن عبادته واعتقاد ألوهيته، مع كمال الدواعي إليهما وانتفاء الصوارف."[14]. تجد نفس المباحث بتغيير طفيف في المضمون من الإشارة إلى ماء المرأة. وأما غير ذلك من وجوه الإعراب، والتذكير بالنعمة الإلهية التي تشير إليها الآية فهو شيء يحافظ المفسر على استمراره ما دام يراه كافيا وهو كذلك.

وعند مفسر حديث كالشيخ محمد بن عبد الكريم إيجاز في تقرير هذه المعاني بما لا يتميز كثيرا عن تفسير السابقين، " (خلقًا من بعد خلقٍ) نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظما ثم لحما ثم إنبات شعر، إلى غير ذلك من تقلب أحوال الجنين في بطن أمه حتى يكتمل خلقه، فيخرج طفلا. في (ظلماتٍ ثلاثٍ) ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وهي غشاء الجنين في بطن أمه، ويقال لها أيضا: الكيس، والغلاف."[15].

على أن تيسر البحوث الحديثة حول نظرية نشأة الكون وما قيل فيها وحولها من التفصيل ليس دائما أمرا ملزما للمفسر أن يذكره في معرض التفسير، فضلا أن يتبناه فهذا الشيخ أبو بكر الجزائري مع أنه من المعاصرين، وبين يديه ما وصل إليه العلم الحديث، فيما يتعلق بالنظرية السديمية إلا أنه قرر ما ذكره الأوائل من أن الرتق المذكور هو الكتلة الواحدة، واقتصر عليه دون التعريج على ما يذكره غيرُه من المفسرين، ولو من باب استعراض الأقوال؛ فقد قال: (كانَتَا رَتْقًا) : " أي كتلة واحدة منسدَّة لا انفتاح فيها. (ففَتقْناهُما): أي جعلنا السماء سبع سموات والأرض سبع أرضين."[16]. وكأنه أراد ألا يقحمَ الآيةَ ضمن ما لا يزال محلّ - على الأقل في نظره - جدل بين العلماء لكونه للنظرية أقرب منه إلى الحقيقة العلمية.

وهذا التردد في جعل الآية في زاوية ما يذكر أنه من قبيل الحقيقة العلمية سواء بالموافقة له أو المخالفة أمرٌ توقف عنده كثير من الباحثين داعين إلى التثبت في الموقفين والتأكد من أن الأمور حقائق، أم أنها لا تزال نظرياتٍ قيدَ البحث والتحقيق؛ فقد قال الشيخ الخضر حسين: " وقد يورد بعض من لا يفرق بين الظنِّيات والعلميات ومن لا يمعنُ النظر في فهم البليغ من الكلام أشياء يزعم أنها علميات جاء القرآن على خلافها، فمن واجب المفسر أن يتصدى لإزاحة هذه الشُّبَه، ويبين بالطريق المنطقي أن ما أُورِدَ على القرآن لا يدخل في العلْميات، أو يذهب في تفسير الآية على وجه يلائم بلاغة القرآن، ولا يخالف ما قرره العلم، وأقام الدليل على أنه قطعي لا يلابسه ريب."[17].

وبنفس المضمون وبذات الطريقة في المعالجة يتناول الشيخ أطفيش الآية في **تيسير التفسير** بعد أن يعرج على لفظ **الرّتق** من جهة إفراده مع أن الآية تتكلم عن السماوات والأرض، وهل الرتق موزع على كل واحدة منهما أو أنه لهما معا، نجده يقول: " (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) ثني لاعتبار أن السموات كمفرد بمعنى فريق أو طائفة، كقوله عز وجل(السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)[المائدة:17]، وقوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)[فاطر: 41] الخ وقول الشاعر:

إن المنيةَ والحُتوفَ كلاهما ... دون المحارم يرقبان سوادي.

وأفرد رتقاً لأنه في الأصل مصدر بمعنى الضم، فيأوَّلُ مرتوقتين بمضمومتين، أو ذاتي رتق، أو مبالغة كأنهما نفس الضم، أو كانتا شيئاً واحداً مضموماً. (ففتقناهما) إلى سبع سموات، وجعلناهن حيث كن الآن، والى سبع أرضين جعلناهن حيث هن الآن بين كل من ذلك وأخرى خمسمائة عام، سمى كل ما يكون سماء أو أرضا من ذلك المجموع، والمضموم سماء وأرضاً على مجاز الأول..."[18].

وفي كلامه رحمه الله توجيه للتعبير بالمثنى عن المجموع، والتعبير بالمفرد عن الفريق والطائفة وما في ذلك من شاهد النحو ومسوّغ البلاغة. دون أن يكون في كلامه شاهدٌ من كلام أهل الهيئة كما فعل أبو راس وهو وإياه من عصرين متقاربين، وثقافتهما تقليدية متشابهة. بعيدة عن معطيات العلم الحديث رغم أن الأخير منهما قد واكب الحركة الإصلاحية التي قادها الأفغاني في الشرق، وآثار غزو نابليون لمصر...

وإذا عدت إلى مفسر معاصر كالشيخ محمد بن عبد الكريم، وهو ذو ثقافة حديثة بل واكب هذه الثقافة من مصادرها إذ كان مقيما بباريس سنين طويلة، وتتكرر لديه الأسئلة الدينية ذات التعلق الطبي وغيره يقتصر في تفسير الآية المذكورة على قوله من باب تحديد الألفاظ "

(رتقا) شيئا واحدا مسدودا متصلا وملتزقا بعضه ببعض. (ففتقناهما) فشققنا السماء بنزول المطر، وشققنا الأرض بظهور النبات عليها."[19].

واقتصر مرة ثانية عن بيان المعنى الإجمالي بإيجاز شديد على قوله: " أو لم يتفكر الكافرون ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا في ابتداء خلقهما شيئا واحدا ملتزقا بعضه ببعض ومسدودا فشققنا السماء بنزول المطر، وشققنا الأرض بخروج النبات فيها وظهوره على سطحها."[20]. مع اقتضاء المقام التوسع في معاني القدرة، وفق ما يقرر العلم الحديث.

ولكن الذي غابَ عند من تقدم بصفة ما، وبمقادير متفاوتة نص الشيخ سعيد كعباش على شيء منه فأشبع بذلك بعض فضول القارئ المعاصر والذي يرغب في إرفاق الحقائق القرآنية بما يدعمها خصوصا من الثوابت العلمية كانت طبية أو فلكية... فقد قال: " في معرض التدليل على بطلان الشركاء يتواصل الكلام في بيان إبداعه تعالى في خلقه، فوبخ المشركين على عدم تدبر آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته، وأن تلك الآلهة الباطلة المزعومة عاجزة عن ذلك فلا يصح أن تعبد من دون الله قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[الأنبياء: 30]

لا شك أن القرآن كلام الخالق العزيز الحكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يقول في شأنه تبارك وتعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[المائدة: 15-16]. فهو إذن كتاب هداية وإرشاد بالدرجة الأولى، وفي معرض سوق الأدلة والبراهين للتدليل على عظمة الله وقدرته، قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية، كما ورد في هذا النص الكريم. وفي مجال العلم التجريبي ما تزال كثير من تلك الحقائق الوجودية نظريات علمية خاضعة للتركيز والثبات، أو النقض والتغيير.

وفي أية حال نحن كمؤمنين نؤمن ونستيقن بما أشار إليه القرآن من تلك الحقائق وإن كان العلم لم يتوصل بعد إلى شرحها وتفسيرها كيف وقعت. ولا نحاول أبدا أن نخضع النص القرآني إلى تلك النظريات العلمية التي لا تعدو أن تكون من اجتهادات البشر قابلة للقبول أو الرفض لأنه تعالى يعلم ونحن لا نعلم."[21].

وفي محاولة لبيان مواكبة مفكري الإسلام مفسرين وغيرهم المواءمة بين حقائق القرآن ومفرزات البحوث التجريبية فتراه يقول: " فهذه النظريات الفلكية من رتق السماوات والأرض وفتقهما تدخل في هذا الإطار وحسبها أنها لا تتصادم في مفهومها الإجمالي مع آراء العلماء الفلكيين قديما وحديثا. وأما الجزئيات والتفاصيل فمتروك إلى المجهود العقلي البشري.

يقول الدكتور أحمد زكي في كتابه القيم مع الله في السماء، يقول: ما السماء؟ سؤال لا تكاد تسأله أحدا حتى تتراءى في خياله صورتان: صورة السماء وإلى جانبها صورة الأرض، فالصورتان متلازمتان. لا لأنهما متناقضتان؛ ولكن لأنهما متكاملتان. وعند كلّ مسئول من الناس تسأله أن الأرض أول وللسماء المحل الثاني، ذلك لأن العيش وهو مشغلة الناس الأولى يرتبط أوثق ارتباط بالأرض ولا يكاد يرتبط بالسماء. والجواب: أن السماء هي كل هذا الوجود."[22].

وفي محاولة خاصة للمفسر أيضا تراه يستعرض وجه الجمع بين الرتق المذكور في نص الآية وبين أحدث النظريات المتوصل إليها في ذلك والتي تجتهد في إعطاء تفسير لنشأة الكون. ويستعين في ذلك بآيات أخرى يراها تفصل القضية بشكل واسع نسبيا، فهو يقول: " قلت: وفي قوله تعالى أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[الأنبياء: 30] إشارة إلى تلك الظاهرة الكونية من انبثاق الكواكب السيارة ومنها الأرض عن الشمس. فالآية معطوفة على ما سبق مصدرة بالاستفهام الإنكاري عن الذين كفروا كيف أنهم لم يروا بديع صنع الله وقدرته في فتق السماوات والأرض بعد أن كانتا كتلة واحدة. مما يعبر عنه علماء الكونيات بـ" السديم" وذلك هو معنى الرتق، أي الضم والالتحام. أما كيف وقع الفتق فيهما فلا تزال نظريات العلماء مختلفة في ذلك.

وفي القرآن، نصوص أخرى ومن أعظمها دلالة على قدرة الله في الخلق والإيجاد قوله تعالى في سورة فصلت (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[فصلت: 9-12].

فالآيتان متكاملتان في المعنى، وإن كانت آيات (فصلت) أكثر تفصيلا في بيان خلقة الأرض من انفصالها عن الكتلة الشمسية إلى برودة قشرتها الظاهرة، وتشكل الجبال الرواسي وما بينها من السبل والفجاج، ثم تمازج الأوكسجين والهيدروجين لتكوين البحار والمحيطات والأنهار، حتى أصبحت الأرض مهادا للإنسان، وموردا لأرزاقه وأقواته بالنبات والحيوان، إذ كان الماء سبب وجود الحياة."[23].

03 . 03 – التفسير العلمي لقوله تعالى (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

وانظر إلى الأمير عبد القادر عند تفسيره بقوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمان: 19-20]؛ فقد عدل عن التفسير بظاهر ما تقتضيه اللغة من المرج والالتقاء، ووجه الآية إلى معنى لا يخالف الظاهر ولكنه لا يقتضيه فقد قال: " فالبحران الشريعة والحقيقة، والبرزخ بينهما العارف، فلا تبغي الشريعة على الحقيقة، ولا الحقيقة على الشريعة. فهو دائما بين ضدين ومشاهدة نقيضين، يَنفي ويُثْبت، وينفيَ ما أثبتَ، لا يستقر به قرار ولا تطمئن به دار، متحرك ساكن، راحل قاطن فهو كطائر يطير من غصن إلى غصن، والذي طار إليه هو الذي طار منه."[24]. ولم يتيسر للأمير بحكم سبق الزمن أن يفسرها بغير ما يذكره المعاصرون عادة وخصوصا الباحثين في إعجاز القرآن من أنهما بحران لكل مذاقه لا يبغي بعضهما على الآخر بالمخالطة وتغيير المزاج.

وتراه في مثال ثان يعدل عن الظاهر المراد مع إقراره له، وذكره مقرونا بالتمثيل له، ويسارع بالقول بأن ذلك الشفاء الذي يدل عليه الظاهر مخصوص بأدوية محددة، بينما أهل الطريق يرون عموم الشفاء فيما ورد به صاحب الشريعة، ويرون عموم النفع عائد إلى نية واعتقاد العبد ومدى يقينه في كلام الشرع فقد قال الأمير: " (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[النحل:69]: اعلم أن أقوال أهل

الظاهر في هذه الآية ونحوها مما ورد عن الشارع كقوله "الحبةُ السوداءُ شفاءٌ من كل داء" معروفة وهي أن تنكير شفاء يفيد الخصوص لا العموم من جميع الأمراض لكل الأشخاص؛ لأنه نكرة في سياق الإثبات فلا تعم. وإنما ذلك شفاء لبعض الأدواء في بعض الأمزجة الخاصة. واحتجوا على ذلك أيضا بكلام الأطباء وبالتجربة.

وأما أهل طريق الله: فقالوا: كل ما ورد عن الشارع فيتلقى بالقبول. وعموم النفع والشفاء في ذلك راجع إلى نية المستعمل وقوة يقينه وكمال تصديقه؛ فعلى قدر اليقين ينجح الاستعمال، ويحصل الظفر بالمراد. ولهم في ذلك وقائع غريبة وحكايات عجيبة رضي الله عنهم. ومن ضعف يقينُه أو تردد فيرجع إلى الأطباء."[25]. وهذا الكلام على عمومه يقلل من قيمة الطب التجريبي ويثني العبد عن استكمال الأسباب فيه. ولعل هذا أن سكون صادقا في طب زمانه ولم يكن العهد بالطب الحديث قد وصل مداه إلى أوطان المسلمين. وعموم الشفاء الحاصل من كلام صاحب الشريعة لا معقب عليه غير أنه لا يتوارد والطب التجريبي على محلّ واحد.

وعد إلى قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)[الرحمن: 19]، فقد تعرض لتفسيرها الشيخ أحمد التجاني وكان قد سأله عنه بعض تلامذته وهو الشيخ علي حرازم بن العربي فقد قال: " وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) [الرحمان 19-20]. الآية فأجاب رضي الله عنه بقوله: معنى البحرين بحر الألوهية وبحر الوجود المطلق وبحر الخليقة وهو الذي وقع عليه (كن)، وهو البرزخ بينهما صلى الله عليه وسلم، لولا برزخيته صلى الله عليه وسلم لاحترق بحر الخليقة كله من هيبة جلال الذات.

قال سيدنا رضي الله عنه: بحر الخليقة بحرُ الأسماء والصفات، فما ترى ذرة في الكون إلا وعليها اسم أو صفة من صفات الله. وبحر الألوهية هو بحر الذات المطلقة التي لا تكيف ولا تقع العبارة عنها يلتقيان لشدة القرب الواقع بينهما. قال سبحانه وتعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)[الواقعة: 85]، ولا تختلطان لا تختلط الألوهية بالخليقة، ولا الخليقة بالألوهية...فالألوهية قائمة في حدودها، والخليقة قائمة في حدودها؛ كل منهما يلتقيان ولا يختلطان للبرزخية التي بينهما لا يبغيان أعني لا يختلط أحدهما على الآخر."[26].

هذا ما ذكره الشيخ التجاني في هذا الموضع، وأنت تراه على طريقة التفسير الإشاري يتعدى الظاهرَ المراد، إذ لم يتعرض فيه المفسر إلى هذا الظاهر ولا إلى ما تقتضيه دلالة اللغة، ولكنه وظف الحقائقَ المقررة في العقائد الإسلامية من أن خصائص البشرية مفارقة للألوهية، وصرف لفظ (البحر) المذكور في الآية إلى مصطلح البحر عند الصوفية، دون أن يدل ذلك على نفي الظاهر المراد ما دام المفسر لم يصرح بذلك في كلامه ولا التزمه في تفسيره.

ونقل عن التجاني وفي نفس المصدر أن الظاهر مراد، وأنه لا يصرف عن مدلوله إلا إذا أدى ذلك إلى مستحيل، فقد قال: " وسألت شيخنا رضي الله عنه عما ذكره بعض المفسرين في حق سيدنا داود عليه السلام. وأنه تمنى بقلبه وأمر الرجل بكذا ليفعله وكذا وكذا؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله: قال معاذ الله أن يصدر هذا من المعصوم وإنما حكى الله عنه أن الخصمين اختصما في نعجة من الغنم لا غير كما قال كما قال الله (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ

نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)[ص: 23، 24].

ومن المعلوم عند المحققين أن القرآن لا يفسر إلا بالخبر الصحيح لا يصرف عن ظاهره إلا إذا كان ظاهره يلزم منه المحال. وكلا الأمرين منتف هنا فلا خبر صحيح مفسر للآية يعتمد عليه ولا قرينة تصرفها عن الظاهر. وإذا فهمت هذا تبين لك أن الآية على ظاهرها وليس كما قيل من التأويل الذي لا ينبغي أن يذكر حتى في صالحي عامة المؤمنين؛ فكيف يقال في صفوة الله هذا التأويل الشنيع نعوذ بالله من التخليط."[27]. والذي نقرره هنا أن التفسير الإشاري هو من قبيل التوسع في المعاني التي أفادها الظاهر لا من قبيل إبطال ذلك الظاهر.

وكونه صلى الله عليه وسلما برزخا لم يستند فيه إلى أثر وارد، ولا تفسير عمن سلف، ولكنه كذلك في عالم المعاني لكونه يتلقى الوحي من الحضرة الإلهية فهو من هذه الجهة مفارق لبعض خواص البشرية بنيله رتبة النبوة. وهو في ذلك كغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهذا التفسير على هذا المنوال غير حاسم في ضبط المعاني؛ إذ لقائل أن يقول: أنه الرسول بذلك يكون قد اختلطت فيه من أوصاف البحرين، وهو نوع من البغي بين البحرين وهو عكس ما دلت عليه الآية. ثم هو في النهاية إيراد يصعب الانفكاك عنه والله أعلم.

وأقارن الآن بين هذا المذكور وبين النص التالي لبعض الباحثين المعاصرين ممن تخصصوا في الخلفيات العلمية للآيات القرآنية، فقد قال بعد أن استعرض نصوص المفسرين القدامى في المعاني اللغوية للبرزخ المذكور وأورد توقف من توقف منهم، قال ما يلي: " ومع تقدم العلم وانطلاقه لاكتشاف أسرار الكون، أخذ يبحث عن كيفية اللقاء بين البحر والنهر، ودرس عيِّنات من الماء حيث يلتقي النهر بالبحر، ودرس درجات الملوحة والعذوبة بأجهزة دقيقة، وقاس درجات الحرارة، وحدد مقادير الكثافة، وجمع عينات من الكائنات الحية، وقام بتصنيفها، وحدد أماكن وجودها، ودرس قابليتها للعيش في البيئات النهرية والبحرية."[28].

وبعد سرد لحقائق فيما يتعلق بخصائص المياه المختلفة من مياه عادية إلى مياه الأنهار ثم مياه البحار، وما هي التفاعلات التي تحدث عند الإمتزاج وأورد في ذلك مجموعة حقائق مقررة في محلها من كتب التخصص، انتهى إلى ما يلي: " وبعدُ: فإن هذا النظام البديع، قد جعله الله تعالى لحفظ الكتل المائية الملتقية، من أن يفسد بعضها خصائص البعض الآخر؛ ليبقى ذلك الاختلاف رحمة للناس وسائر الكائنات، وإذا كانت العين المجردة لا تستطيع أن ترى هذا الحاجز الذي يحفظ الله تعالى به منطقة المصبِّ؛ فإن الأقمار الصناعية اليوم قد زوَّدتنا بصورة باهرة تُبيِّن لنا حدود هذه الكتل المائية الثلاث، التي تزداد وضوحًا كلما ازداد الفارق في حرارة الماء وما يحمله من مواد. وبالرغم من أن الماء العذب يمتزج مع ماء البحر، فإن هناك حدودًا على طرفي منطقة الامتزاج المحدودة، التي تفرض قيودًا على ما يدخلها أو يخرج منها، وهذا الوصف ينطبق تمامًا على نظام المصبِّ."[29].

وأعرج فيما يلي على ما يراه مصطفى علي وهو ممن تعرض للتفسير وتناول الأمور العلمية التي تتعلق بالآية القرآنية خصوصا في الجزء الأول المطبوع وهو مفسر وصل إلى

معلومِهِ ما كاد أن يستقر من المعارف البشرية حول الكواكب والمجموعة الشمسية فقد قال " وإن كان موضوعنا ذكر السماوات السبع الشرعية وحيت أن السماوات السبع هي كواكب الجنة وأرضها ومواطنها لذلك كان لزاما علينا الإشارة إلى الجنة ومكانها وحدودها وكواكبها. وإذا كانت السماوات السبع لا تخرج ولا تزيد عن حدود المجموعة الشمسية وهي على عدد الكواكب المكتشفة في إطار المجموعة الشمسية والتي أعطي لها هذه الأسماء."[30]، وهو كلام عام لا يتعلق بخصوص آية بعينها، وقوله: " وحيث أن السماوات السبع هي كواكب الجنة وأرضها ومواطنها " كلامٌ لم يقدم عليه دليلا.

03 . 04 – المغيبات الخمس.

وفي موضوع آخر يتناول الشيخ جابر الجزائري فكرة أن العلم الحديث أصبح بإمكانه أن يعرف جنس الجنين وهو لا يزال في بطن أمّه وهو مشكل مع يذكر في المغيبات الخمس الواردة في قوله (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)[لقمان: 34]: " ما ادّعى اليوم من أنه بواسطة الآلات الحديثة قد عرف ما في رحم المرأة فهذه المعرفة ليست داخلة في قوله تعالى (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) لأنها بمثابة من فتحَ البطنَ ونظرَ ما فيه فقال: هو كذا وذلك لوجود أشعة عاكسة أمّا المنفيّ عن كل حد إلا الله أن يقول المرء: إن في بطن امرأة فلان ذكراً أو أنثى ولا يقربُ منها ولا يجرّبها في ولادتها السابقة، ولا يحاول أن يعرف ما في بطنها بأيّة محاولة."[31].

وفي كلامه وما مثل به محاولة للتخلص من الإشكال المطروح وفي مناقشة لأن ما يستعان به من وسائل العلم لا يقدح في قيمة العلم ولا المعلومة. وقد قال تعالى في موضع آخر (فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)[الرحمن: 33].

وقبل هذا نجد ابن باديس وهو من المفسرين المعاصرين كما هو معلوم وقد أدرك كثيرا من الاكتشافات العلمية ويبدو أنه كان على اطلاع على شيء منها كما يفيده نص ككلامه، وقد استفاد هو نفسه من ذلك ففي حديثه عن ضوء القمر ولا يفوته بعد الاطلاع عليه وهي معارف حديثة بيقين أن يشيد بمعجزة القرآن الذي تضمن هذه الحقائق على لسان رسوله النبي الأمي منذ أربعة عشر قرنا فهو يقول:" (فَمَحَوْنَا)[الإسراء: 12]، المحْوُ هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو (آيَةَ اللَّيْلِ)[الإسراء: 12] إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل؛ فتفيد الآية أن القمر كان مضيئاً، ثم أزيل ضوءه فصار مظلماً. وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس.

واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر-كالأرض- كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحَمْو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد؛ لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية: ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم، وتقدموا في العرفان!! فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلاّ أفراداً قليلين من علماء الفلك. وإن حمو جرمه أولاً، وزواله بالبرودة ثانياً، ما عرف إلاّ في هذا العهد الأخير. والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو

أربعة عشر قرناً نبي أمي، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلاّ بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها!!

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ."[32].

وهذا الذي استفاده من لفظ (مَحَوْنا) هو مدلولها اللغوي مؤكَّدا بحقائق العلم الحديث وهو مسلك نراه سليما؛ لأنه لا يحمل اللفظ القرآنية الشريفة غير ما تحتمله من معاني اللغة، ولا يعتمد في معارف العلم على غير ما صار حقيقة متداولة لا شك فيها، ثم إن وجه الربط بينهما ظاهر لا تكلف فيه.

وأنقل هنا كلام بعض مفسري الإباضية المعاصرين لقوله تعالى (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)[العنكبوت: 15]، فبعد أن قرر أن عود الضمير في الآية يمكن أن يكون متعددا، وهو توسعٌ في التفسير تحتمله الآية إذ قال ما نصه: " الضمير إما أن يعود إلى السفينة وهي أقرب مذكور أو يعود إلى قصة نوح كلها؛ لأنها معروفة عند جميع الأمم؛ لأن كتب التاريخ كلها تذكرها في تاريخ نسب البشر والأمم. وكل الكتب المنزلة تذكر نوحا وقصة السفينة والطوفان فليس في البشر من ينكرون أنهم ينتسبون إلى نوح عليه السلام غير أحد أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث. والعرب ساميون."[33].

تجده ينتقل إلى مصير سفينة نوح ويذكر ما توصلت إليه الأبحاث حديثا من أنه " زعم بعضهم أنهم عثروا على سفينة نوح عليه السلام في حفرية من الحفريات، ونحن لا نستبعد ذلك، ونوح لم يكسر سفينته ولم يحرقها، وليست هناك حكمة حتى يذكر الله تعالى مصير السفينة ومآلها. يقولون إن لديهم قرائن كثيرة تدل على أن هذه السفينة هي سفينة نوح منها أنهم وجدوها في المكان الذي وصفته كتب التاريخ القديمة، وقد يمكن هذا وهم قد اكتشفوا أكثر من هذا إذْ تتحدث الأخبار عن اكتشاف جمجمة لقرد في بعض جهات مصر لم تتكسر منها سن وقدروا عمرها بحوالي 28 مليون سنة، بينما أوصلها البعض إلى 40 مليون سنة ولا يزالون مختلفين. فكم يا ترى يكون عمر الأرض؟ لقد أوصله البعض إلى مئات الملايين من السنين."[34].

وما ذكره الشيخ بيّوض من التعرض لمصير السفينة إنما هو استطراد دعت إليه المعارف الحديثة التي يذكر أصحابها أنهم عثروا على السفينة المذكورة. وتصديقهم في العثور عليها جرَّ إليه تصديقُ الشيخ للباحثين في جملة العلوم الحديثة فيما يذكرون أنهم توصلوا إليه، وإنما يبقى التردد في الأرقام والنسب المذكورة؛ لأجل اختلاف أصحابها.

والمهم فيما نقلته من التمثيل من التفاسير المذكورة سابقا، هو الوقوف على كيفية تطرق المفسر الجزائري قديما وحديثا للآيات التي تتضمن حقائق علمية سواء ما تعلق منها بالطب أو الفلك أو التاريخ. وكيف تعامل مع ما تقرر في ظل ما تيسر من مباحث العلوم التجريبية خصوصا، وما كان متاحا لدى مفسر القرون المحددة فترة للدراسة. وقد تبين أن المفسر الجزائري من خلال الأعمال المتوفر عليها وإن لم ينسق انسياق المفسر المشرقي للاستكثار من المقارنات والمقاربات سواء بالتصديق أو تحديد الاختلاف في النتائج المحصل عليها إلا أنه لم يهمل المعالجة التفسيرية للإعجاز العلمي، كما لم يتخم التفسير بمباحثه، ورائده في ذلك الاحتياط والتحفظ المنصوص عليها مشرقا ومغربا من إحراج حقائق القرآن بمقارنتها بنتائج

البحث العلمي والتي كثيرا ما تكون مجرد نظريات قيد البحث لم يتم ترسيهما علميا، وإدراجها معرفيا ضمن السياق العلمي.

الخاتمة: أستخلص من عرض هذا المقال أمور منها:

- أن التفسير العلمي بمفهومه الفني وجد عند المفسرين المعاصرين.
- أن المفسرين الجزائريين لامسوا هذا النوع من التفسير بتحفظ كبير.
- لا يوجد إغراق في حشو الأرقام والنسب العلمية في صلب التفسير.
- أن مجال القول لا يزال واسعا أمام المفسرين الجزائريين في هذا الميدان بشروطه.

الهوامش:

---

[1]- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي (دار القلم، الكويت، ط02، ب ت) 140/3.

[2] - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي (إدارة البحوث والافتاء، السعودية، 1986م) 549/2.

[3] - محمد عبد العظيم الزرقاني،مناهل العرفان في علوم القرآن (مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط03، 1960م) 1/ 26.

[4] - مساعد بن ناصر الطيار، الإعجاز العلمي إلى أين؟ (دار ابن الجوزي، العربية السعودية، 1433هـ) 20/.

[5] - أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمان العك (دار النفائس، لبنان، ط 04، 2003م) / 252.

[6] - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لعبد الرحمان الثعالبي (المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ط:02. 1982م)59/1.

[7] - الإبريز والإكسير لأبي راس الناصري (مخطوط خاص) لوحة 28.

[8] - الإبريز والإكسير لأبي راس الناصري، المصدر نفسه. لوحة 28.

[9] - تفسير كتاب الله العزيز، المصدر نفسه. ج 59/3.

[10] - تفسير الثعالبي، المصدر نفسه. ج 53/3.

[11] - تفسير الثعالبي، المصدر نفسه. ج 53/3.

[12] - هميان الزاد لطفيش، المرجع نفسه. ج 31/12.

[13] - هميان الزاد لطفيش، المرجع نفسه. ج 31/12.

[14] - تيسير التفسير، المرجع نفسه. ج 137/9.

[15] - توجيهات القرآن العظيم لمحمد بن عبد الكريم، المرجع نفسه. ج 474/7.

[16] - أيسر التفاسير للجزائري، المرجع نفسه. ج 470/2.

[17] - موسوعة الأعمال الكاملة للخضر حسين، 29/2.

[18] - تفسير اطفيش، المرجع نفسه. ج 202/6..

[19] - توجيهات القرآن العظيم، المرجع نفسه. ج 522/5..

[20] - توجيهات القرآن العظيم، المرجع نفسه. ج 522/5.

[21] - نفحات الرحمان، المرجع نفسه. ج 33/9-34.

[22] - نفحات الرحمان، المرجع نفسه. ج 33/9-34.

[23] - نفحات الرحمان، المرجع نفسه. ج 33/9-34.

[24] - المواقف، المرجع نفسه. ج 211/1-212.

[25] - المواقف، المرجع نفسه. ج 147/2-148.

[26] - **تفسير التجاني ضمن كتاب جواهر المعاني، لابن حرازم (المكتبة العصرية - صيدا لبنان - ط: 01. 2002م.) 1/ 113- 114.**
[27] - **جواهر المعاني، المصدر نفسه. ج 1/ 116.**
[28] - **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مقرر جامعة المدينة العالمية (نسخة إلكترونية)/323.**
[29] - **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، المرجع نفسه. / 325.**
[30] - **الحق لما اختلف فيه من الحق، مصطفى بن علي، المرجع نفسه. ج 395/1.**
[31] - **أيسر التفاسير للجزائري، المرجع نفسه. ج 259/3.**
[32] - **تفسير ابن باديس، المرجع نفسه. / 47.**
[33] - **في رحاب القرآن، الشيخ بيوض، المرجع نفسه. ج 81/9-82.**
[34] - **في رحاب القرآن، المرجع نفسه. 81/9-82.**

المصادر والمراجع:

- **التفسير والمفسرون**: محمد حسين الذهبي (دار القلم، الكويت، ط02، ب ت) 140/3.
- **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، فهد الرومي (إدارة البحوث والافتاء، السعودية، 1986م) 549/2.
- محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن** (مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط03، 1960م)
- مساعد بن ناصر الطيار، **الإعجاز العلمي إلى أين؟** (دار ابن الجوزي، العربية السعودية، 1433هـ)
- **أصول التفسير وقواعده**، خالد عبد الرحمان العك (دار النفائس، لبنان، ط 04، 2003م)
- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، لعبد الرحمان الثعالبي (المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ط:02. 1982م)59/1.
- **الإبريز والإكسير** لأبي راس الناصري، المرجع نفسه. لوحة 28.
- **تفسير كتاب الله العزيز** لهود بن محكم الهواري (مطبعة غرداية، 2009م)
- **هميان الزاد إلى دار المعاد**، للشيخ اطفيش (وزارة التراث القومي - سلطنة عمان ، بدون تاريخ)
- **تيسير تفسير**، للشيخ محمد بن يوسف اطفيش (نسخة إلكترونية - المكتبة الشاملة - الإصدار الأول 2010م)
- **توجيهات القرآن العظيم**، لمحمد بن عبد الكريم (طبعة جزائرية مطموسة البيانات)
- **موسوعة الأعمال الكاملة للخضر حسين**، علي الرضا الحسيني (دار النوادر، سوريا، ط: 01، 2010م)
- **نفحات الرحمان**، للشيخ سعيد كعباش. (جمعية النهضة - غرداية الجزائر - ط: 01. 2006م)
- **المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف**، للأمير عبد القادر (دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 03، 2000 م)
- **تفسير التجاني ضمن كتاب جواهر المعاني**، لابن حرازم (المكتبة العصرية - صيدا لبنان - ط: 01. 2002م.) 1/ 113.
- **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، مقرر جامعة المدينة العالمية (نسخة إلكترونية)/323.

- **الحق لما اختلف فيه من الحق**، مصطفى آل عزيز (دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: 01، 1990م)
– **مجالس التذكير**، لعبد الحميد بن باديس (دار الكتب العلمية - بيروت - ط:01. 1995م)
- **في رحاب القرآن**، للشيخ عمر (المطبعة العربية، غرداية - الجزائر - 2001م)